دراسات في السيرة النبوية خصائص المرحلة المكية في مجال المعرفة

بقلم : د .محمد أمحزون

لقد كان أول ما نزل من آي القرآن الكريم خمس آيات كانت استهلالا للرسالة الخاتمة الخالدة، وهي الآيات التي افتتحت بها سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:1-5).

وبهذه الآيات وضع الله تعالى معالم الرسالة الإسلامية الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم مبينا أنها رسالة العلم والمعرفة والعقل، وهي أعظم نعم الله تعالى على الإنسان (1).

وبهذه الآيات البينات، وما تضمنته من الإشادة بالقراءة والكتابة والعلم، أبان الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم- ولأمة الإسلام أن المعرفة بوسائلها : من قراءة وكتابة وتعلم هي الأسلوب الأمثل لتبليغ الرسالة.

وبهذه الآيات أعطيت الأمة مفاتيح الإصلاح والتقدم والرقي؛ لتعلم أنه لا إصلاح ولا مدنية ولا حضارة بغير علم ومعرفة؛ فالجهل وهو نقيض العلم ل يأتي إل بالشر والفساد والتخلف، كما أن الهداية إلى معرفة الحق واعتناقه والحرص على إقامة معالمه والدعوة إليه لا يكون إلا مع العلم، ول يكتب للعلم النمو والنتشار إل إذا سجله القلم ونشره وأعلن عنه (2).

على أن العلم ل يسلك إلى القلوب سليقة وطبعا ، أو يتلقاه الناس غريزةا وفطرة وإنما يخضع ، للقوانين التي أودعها الله عز وجل في الوجود، ولسنن الله في نظام الحياة.

والكشف عن هذه السنن يقوم على التعلم والبحث والتدبر وإعمال الفكر واستقراء الظواهر؛ مما يقود إلى إماطة اللثام عن قوانين المادة وسنن الاجتماع للإفادة من ذلك في بناء صرح الحضارة الإنسانية ضمن التوجيهات والضوابط والحدود الإلهية.

ومن اللافت للنظر أن استفتاح الوحي بهذه الآيات البينات فيه دلالة واضحة على أن العلم في دائرة سنن الله في الحياة يعد من أهداف الأمة الإسلامية في تبليغها رسالة الإسلام؛ (لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها) (3).

ولا شك أن هذه المنزلة الرفيعة التي منحها الإسلام للعلم، حفزت المسلمين بأمر وتشجيع من رسول الله-صلى الله عليه وسلم- على طلب العلم طلبا موصولا دائما.

ولهذا الغرض كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يجتمع بأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين (4) . كما كان يقوم بعضهم بإقراء بعض مثلما كان يفعل (خباب بن

الأرت) حيث كان يختلف إلى (فاطمة بنت الخطاب) وزوجها (سعيد بن زيد) رضي الله عنهما . يقرئهما القرآن من الرقاع (5).

بل كان أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- حريصين أشد الحرص على معرفة كتاب الله مثلما كان يفعل (ابن أم مكتوم) الأعمى رضي الله عنه، حيث كان يأتي إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- يستقرئه القرآن ويلح عليه في ذلك، وهو الذي نزلت بسببه ى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس:1-2)

العلم بالعقيدة:

في الفترة الأولى التي قضاها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في مكة منذ بعثته إلى أن هاجر إلى المدينة، عنى القرآن المكي أولا بإصلاح العقيدة وتخليصها من شوائب الوثنية، وتهذيب النفوس بتجريدها من رذائل الصفات، حتى تجتمع القلوب على توحيد الله عز وجل، وتمحو من النفوس آثار الجاهلية.

كما عني القرآن المكي في هذه الفترة بتعميق الإيمان في النفوس وبيان أبعاده القلبية والقولية والعملية ، والتركيز على مقتضيات (لا إله إلا الله) التي تعنى بنقل الإنسان من تقاليد وأعراف الجاهلية إلى أصول الإسلام وأحكامه في نواحي الحياة المختلفة.

وكان من حكمة الله تعالى أن جعل لترسيخ هذه العقيدة على أهميتها وخطورتها المدة الكافية، وهي الفترة المكية؛ حيث ظل الوحي ينزل ثلاثة عشر عاما ليوضح معاني هذه العقيدة ومقاصدها ضمن التطبيق العملي في واقع الحياة.

ولم يعرض التشريع القرآني ولا النبوي في هذه الفترة لشيء من التشريعات العملية إل ما له ارتباط بالعقيدة؛ كتحريم ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام:121)، أو كان عبادة تربطهم بالله عز وجل وتوجههم إلى الخير: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:72).

توحيد الله عز وجل في ألوهيته :

ولأن المعركة من نوح إلى محمد صلوات الله عليهما واحدة، وقضيتها واحدة، فقد جاء التعبيرَ عن الرسالت جميعا في القرآن الكريم بأنها كتاب واحد: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة:213).

فطبيعة دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا أنها دعوة واحدة إلى منهج التوحيد بكل فروعه وأنواعه، وما يستلزمه ذلك من نبذ الشرك بكل صوره وألوانه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف:59). وجاء في حديث علي رضي الله عنه عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله) (7).

وبناء على ذلك؛ فإن قضية الصراع بين الأنبياء الذين يحملون لواء (لا إله إلا الله) وبين الجاهليين أو (الملأ) كما يسميهم القرآن الكريم لا يرجع إلى البعثة النبوية فحسب، وإنما تمتد جذوره إلى فجر البشرية. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهو يتنزل بقصص الأنبياء وقصص المكذبين من قبل في الفترة المكية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (فاطر:25):

أصلان يقوم عليهما الدين :

ولقد دل استقراء نصوص الكتاب والسنة أن هذا الدين يقوم على أصلين :

الأول : ألا يعبد إلا الله، بالمعنى الشرعي للعبادة ، (وهي اسم جامع لكل ما يحب الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) (8).

الثاني : ألا يعبد إلا بما شرع على لسان رسوله؛ (فلا إله إلا الله) لا تعني مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء كما كان المشركون عباد الأصنام مقرين بذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان:25) لكنهم اتخذوا في واقع الأمر شركاء مع الله عز وجل يتقربون إليهم بالطاعات، فلم ينفعهم هذا الإقرار. ذلك أن التوحيد الحق يتضمن محبة الله عز وجل وتعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتسليم لأمره، والانقياد لطاعته في جميع شؤون الحياة بدءا بالعقيدة ثم العبادات وسائر المعاملات التي يتعرض لها الإنسان في حياته؛ لأن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله (تنفي عن قلبه إلهية ما سوى الحق، وتثبت في قلبه إلهية الحق.. بحيث يكون محبا لله، معظما له، عابدا له، راجيا له، خائفا منه، محبا فيه، مواليا فيه، معاديا فيه، مستعينا به، متوكلا عليه.. وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى..) (9).

وعلى ذلك فإن هذا يعني : الإذعان للإسلام، والخضوع له في التصور والفكر والسلوك، في جميع نواحي الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:162-163).

ولا شك أن العرب وهم أدرى وأعلم بلغتهم يدركون بداهة أن (لا إله إلا الله) تعني طاعة الله وعبادته وحده لا شريك له. ومعنى ذلك : نزع السلطان الذي يزاوله الأمراء والحكام وزعماء القبائل بمقتضى أهوائهم ومصالحهم، ورده كله إلى الله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاه﴾ (يوسف :40).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:162-163).

يقول صاحب الظلال رحمه الله في تفسير هذه الآية: (ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى العبادة التي يخص بها الله وحده.

إن معنى: عبد في اللغة : دان وخضع. ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر، إنما كان هو معناه اللغوي نفسه. فعندما نزل هذا النص أول مرة (في المرحلة المكية) لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه. إنما المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي. كان المقصود به هو الدينونة لله وحده والخضوع له وحده، واتباع أمره وحده سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية أو تعلق بتوجيه أخلاقي، أو تعلق بشريعة قانونية. فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه ولم يجعلها لأحد من خلقه.

تعليلا لاختصاصه بالحكم؛ فالعبادة أي الدينونة لا تقوم إذا كان الحكم لغيره، وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة) وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو، نفهم لماذا جعل يوسف عليه السلام اختصاص الله بالعبادة (10).

وبهذا المعنى كان العرب يدركون أن (لا إله إلا الله) رفض للسلطان الوضعي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية وهي العبادة والطاعة، وخروج على كل من يحكم بشريعة أو قوانين لم يأذن بها الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى:21).

ولذلك لم يكن يغيب عن المشركين وهم يعرفون المدلول الحقيقي لدعوة لا إله إلا الله ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ومصالحهم وسلطانهم.

وإلى ذلك نبه (ورقة بن نوفل) بعد سماعه خبر نزول الوحي لأول مرة فقال: (ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك؛ فيسأله النبي-صلى الله عليه وسلم- في استغراب (أو مخرجي هم ؟) ! فيقول ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إل عودي) (11).

وأخرج الحاكم والبيهقي وأبو نعيم من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- لما خرج في موسم الحج يدعو قبائل العرب إلى الإسلام، عرض نفسه على بني شيبان بن ثعلبة، فدعاهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه عبده ورسوله، وأن يؤووه وينصروه ليبلغ رسالة ربه، فقال له المثنى بن حارثة الشيباني : وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فرد عليه النبي-صلى الله عليه وسلم- بقوله : (وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه) (12).

الإيمان قول وعمل:

إن شهادة أن (لا إله إلا الله) لم تكن مجرد كلمة تقال باللسان، ولا يمكن أن تكون كذلك في مرحلة من مراحل الدعوة، فضلا عن مرحلة التأسيس التي هي أشق المراحل وأهمها؛ وإلا فما معنى تلك المعاناة القاسية التي لقيها المسلمون من المشركين وما موجبها ؟ ! وإنما كانت هذه الشهادة نقلة بعيدة ومعلما فاصلا بين حياتين لا رابطة بينهما : حياة الكفر وحياة الإيمان، وما يستلزمه ذلك من فرائض وتعبدات ومشقات أعظم وأكبر من فريضة الصلاة والزكاة ونحوها : من ذلك فريضة التلقي الكامل في التشريع والحكم وكل ميادين الحياة عن الله ورسوله، ونبذ موازين الجاهلية وقيمها وأخلاقها وأعرافها وتشريعاتها .

ومن ذلك الولاء المطلق لله ورسوله، والعداء الصارم للكفار ولو كانوا آباء وإخوانا وأزواجا وعشيرة.

ومن ذلك فريضة الصبر على الأذى في الله الذي لا تطيقه إلا نفوس سمت إلى القمة، تحمل . الفرائض والواجبات حتى إن الواحد ليكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار(13).

وهذا ما كان يعانيه بلال رضي الله عنه وهو يلبس أدرع الحديد ويسحب في رمضاء مكة وقت الظهيرة، وما كان آل ياسر يلقونه وهم يتعرضون لأشد بلاء شهدته أسرة مضطهدة (14)، ذلك كثير مما سجلته كتب السيرة والحديث .

إن في إمكان أي إنسان أن يصلي ما شاء الله له ، وينفق بما شا الله له دون أن يناله كبير مشقة، ولكن : أي إنسان هذا الذي يستطيع أن يخالف عادات وأعراف اجتماعية درج عليها المجتمع أجيالا ويتحداه بمخالفتها ؟ فما بالك إذا كان الأمر ليس مجرد مخالفة عادة أو عرف، وإنما هو مفاصلة كاملة ومنابذة تامة لكل عبادة جاهلية وقيمة جاهلية وعرف جاهلي.

ثم هو مع ذلك زجر قاطع للنفس عن شهواتها وملذاتها ومراقبة شديدة لها.

ولهذا كانت النماذج الكثيرة في الجيل الأول ممن يشهد ألا إله إلا الله، فيعود من فوره إلى بيته ليحطم الأصنام التي طالما عبدها، وليقطع العلائق التي طالما وثقها (15).

وهكذا فهم المسلمون دلالة هذه الكلمة المتميزة، كما فهمها الكافرون على حد سواء: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:42)؛ فهمها المسلمون فالتزموا بما فرضه عليهم من تبعات وتكاليف، وقاومها الكافرون؛ لأنهم فهموا مقتضاها وما يترتب عليها من ذهاب سلطانهم وتحطم كيانهم، وتهافت أساطيرهم وأوهامهم .

إنه حتى على المنطق الجاهلي لا يصح للمرء أن يتصور شهادة بلا أثر في واقع الحياة، وإلا : أفكان الجاهليون يقتلون مواليهم ويعذبون أبناءهم وإخوانهم ويقطعون أرحامهم لمجرد كلمة تقال باللسان أو نظرية ذهنية في المعرفة ؟ !(16).

إن حقيقة العبادة لو كانت مجرد كلمة تقال باللسان أو هي الشعائر التعبدية فقط لما استحقت كل ذلك الموكب من الرسل والرسالات، ولما استحقت كل تلك الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله عليهم وعلى رأسهم محمد؛ إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الخضوع للعباد ولأهوائهم إلى الإذعان لرب العباد، في كل أمر وفي كل شأن.

ولأجل ذلك : فإن كلمة التوحيد : (لا إله إلا الله) إعلان إلهي عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية لغيره ولهواه، وذلك بإعلان العبودية لله وحده المتمثلة في إفراده بالطاعة.

على أن سياد الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية التي تخدم فئة من الناس وهم (الملأ)، كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان؛ لأن المتسلطين على رقاب العباد المغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان(17) ، بل حتى الأفراد أنفسهم، وهم ليس لدى أكثرهم ، الذين عبدوا أنفسهم لغير الله من الطواغيت والأنداد المختلفة والأصنام الفكرية استعداد لترك ما ألفته النفس، وسار عليه الآباء والأجداد، ويعيش عليه المجتمع كله، لمجرد التبليغ

والبيان، بل إن ما في نفوسهم من حواجز الكبر والعناد والتمرد لا يقل عن الحواجز الضخمة التي ا يضعها البشر المتألهون دون شعوبهم المستعبدة (18).

وإزاء هذه الاعتبارات، فإن هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان الله بإعلان ألوهيته للعالمين: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:84) لم يكن إعلاناا نظريا فلسفيا سلبيا، وإنما كان إعلانا حركيا واقعيا وإيجابيا ، إعلانا يراد به التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل ، من العبودية

للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك. ومن ثم لم يكن بد أن يتخذ هذا الإعلان شكل الحركة أي الجهاد (19) إلى جانب شكل البيان أي التبليغ(20) وهو ما جمعته آية سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25).

هذا وقد رسخ القرآن الكريم في قلوب الصحابة رضي الله عنهم العقيدة الصحيحة بهذا المفهوم، وأتت تربية الرسول-صلى الله عليه وسلم- لأصحابه ثمارها المباركة في هذا الجانب، فلم يحتكموا إلا لله، ولم يطيعوا ويتبعوا أحدا على غير مرضاة الله، ولم يوالوا ويعادوا إلا في الله، ولم يستغيثوا ويستعينوا إلا بالله، إلى غير ذلك من حقائق ومعاني هذا الأصل العظيم التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية في المرحلة المكية.

توحيد الله عز وجل في ربوبيته :

جاء القرآن المكي موضحا لنوع آخر من التوحيد هو توحيد الربوبية، ومن مقتضياته أن الإحياء والإماتة، والرزق والنفع والضر وتدبير شؤون الخلق، والتشريع من تحليل وتحريم، من خصائص رب العالمين .

وقد أفصح القرآن المكي عن ذلك في مواضع كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الدخان:8)، و قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الإسراء:30)، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف:54) ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس:3) .

وقد بين القرآن الكريم أن العلة في اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله هي بما أعطوهم من حق التشريع في التحليل والتحريم وأطاعوهم فيه، كما في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31).

وقد علم رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أصحابه تجريد هذا النوع من التوحيد، فنفوا حسا وواقعا كل ما يضاد توحيد الربوبية من اعتقاد متصرف مع الله عز وجل في أي شيء من تدبير الكون، حيث استقر في قلوبهم إلى درجة اليقين أن الله عز وجل هو المحيي المميت، وأنه هو الضار النافع، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه هو المدبر المشرع بيده كل شيء.

كما رسخ في قلوبهم بفعل التوجيهات القرآنية والنبوية أن المخلوقات البشرية إن هي إلا أدوات لقدر الله، وأنها حين تضره فهي تضره بشيء قدره الله له، وحين تنفعه فإنما تنفعه بشيء قد كتبه الله له، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

وحين كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعلم أصحابه هذه العقيدة ويربيهم عليها، إنما كان ينشئ بقدر الله ذلك اليقين القلبي الذي ينبثق منه السلوك العملي. فليست العقيدة مفهوما معرفيا ذهنيا تستوعبه الأذهان وكفى، إنها على هذا على النحو لا تصنع شيئا في عالم الواقع، كالفلسفة في الأبراج العاجية لا تغير شيئا في واقع الناس، إنما هي عقيدة ترسخ وترسخ حتى تصبح يقينا قلبيا تنطلق على هداه مشاعر القلب، ويجري بمقتضاه السلوك العملي للإنسان (21).

وبهذه الصورة الناصعة آتت العقيدة ثمارها المباركة في مواقف الصحابة وهديهم؛ فلم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا عليه، ولم يلتجئوا إلا إليه، وصدعوا بالحق في وجه الباطل لا يخافون لومة لائم؛ لأنهم علموا حق العلم أن كلمة الحق لا تقدم أجلا ولا تؤخر رزقا.

ترى: كم يحتاج الشاب المسلم الذي يعمل في حقل الدعوة من جلسة علمية ودرس وموعظة وتوجيه ليرسخ في قلبه إلى درجة اليقين أن الأرزاق والآجال بيد الله وحده، فهو المحيي المميت، وهو الضار النافع، وهو المعطي المانع، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء، ذلك أن كثيرا من المسلمات العقدية تبقى بدهيات ذهنية تستقر في وقت السلم والأمن في الشعور، ولكنها تهتز إذا تعرضت للشدة ومحك الاختبار؛ لأنها ليست عميقة الجذور، ولم تعد يقينا قلبيا بمفعول التربية .

توحيد الله عز وجل في أسمائه وصفاته :

وكذلك جاء القرآن المكي مقررا لتوحيد الأسماء والصفات، فغالب الآيات تختم بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، لتأكيدها وترسيخها في النفوس، كي يعبد الله عز وجل بمقتضاها. مثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان:6)،

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:18)، وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام:96).

ولما كان لتوحيد الأسماء والصفات شأن عظيم وأثر كبير في النفوس والقلوب، ولا يصح إيمان عبد إلا بإيمانه بأسماء الله وصفاته، فقد أمر الله عز وجل عباده أن يدعوه بها ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف:180).

كما أمرهم أن ينزهوه عن مشابهة المخلوقين وعن تأويل صفاته وتحريفها، وأن يؤمنوا بصفات جلاله ونعوت كماله كما جاءت في كتابه الكريم بلا كيف، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:11)، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه:110).

وهنالك بعد آخر في فهم الأسماء والصفات، وهو فقهها والشعور بآثارها القلبية والتعبد لله عز وجل بها، وتحقيق ما تقتضيه من فعل المأمورات وترك المنهيات اقتداء برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه رضي الله عنهم الذين تعلموا منه الإيمان والعمل؛ فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : (كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن فتيان حزاورة (22) فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا) (23) ، فنظروا إلى كل اسم من أسماء الله بأن فيه حقا من العبودية لله عز وجل على العباد يتعبدون لله سبحانه وتعالى. وهذا جلي وواضح من سيرهم ومواقفهم وأعمالهم (24).

ويذكر ابن القيم رحمه الله مقتضيات هذه العبودية وآثارها بقوله : (لكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها وهذا مط رد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح؛ فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء ، والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة : يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ولوازم التوكل وثمراته ، وأنه يعلم السر ، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة ، وعلمه بسمعه تعالى وبصره ، ظاهرا ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه على كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك: الحياء باطنا ويثمر له اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمتهُ توجب سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته

بجلال الله وعظمته وعزه يثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات) (25).

ويقول ابن بطال رحمه الله عن طريقة العمل بالأسماء والصفات : (فليمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها) (26).

ومن هذا يتبي ن أن المقصود من توحيد الأسماء والصفات ليس مجرد المعرفة الذهنية فحسب، وإنما الغاية منها أن نحققها علما وعملا، ونفهمها كما فهمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام لفظا ومعنى، وتعبدوا الله تعالى بها، وعملوا بمدلولها في واقع الحياة (27).

وهكذا تربى الجيل الأول رضوان الله عليهم على تعلم وفهم صفات الله وأسمائه الحسنى فعبدوه بمقتضاها، وعرفوه حق معرفته، وقدروه حق قدره، فملئت قلوبهم بتعظيمه وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لعظمته وكبريائه، واستشعار مراقبته في كل الأوقات، فأصبح رضاه سبحانه وتعالى غاية قصدهم ونهاية آمالهم.

الإيمان بالله واليوم الآخر :

أما الإيمان، فقد ركز القرآن المكي على عرض قضايا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر عرضا مفصلا ومجملا، يتناول الملائكة وأعمالهم وصفاتهم، والكتب وما فيها، والنبيين ودعوتهم وقصصهم، ومقادير الخلق، وأحوال البرزخ، ويوم القيامة، وأحوال المنعمين والمعذبين، وكيفية البعث وحشر الناس ومحاسبتهم، بأسلوب معجز حتى لكأن الإنسان ينظر إلى يوم القيامة رأي عين: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر:68-74).

على أن قضية الإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء من قضايا العقيدة الرئيسة التي جاء بها الإسلام، والتي يقوم عليها بناء العقيدة بعد توحيد الله، لما لها من أهمية في تهيئة النفوس وإعدادها للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه مناط العوض والجزاء في اليوم الآخر. ولأجل ذلك لم يناقش القرآن المكي قضية من القضايا بالتفصيل مثل عرضه لأمر الإيمان باليوم الآخر.

ولا شك أن الاهتمام الشديد بذكر اليوم الآخر في كتاب الله، وتقريره في كل موقع ومناسبة، وورود ذكره في القرآن بأسماء كثيرة مع العلم أنه كلما كان للمسمى شأن عظيم كلما كثرت أسماؤه يعطي الانطباع ويوحي بخطورة هذا الأصل في تقويم حياة الإنسان وتوجيهه لعمارة الدنيا بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولذلك ركز النبي -صلى الله عليه وسلم- على ربط أصحابه بعقيدة اليوم الآخر، وعلمهم بقوله وفعله كيفية الاستعداد للقاء الله عز وجل، فأثمر لهم هذا العلم واليقين بالنبأ العظيم عد ة ثمرات منها: الإخلاص لله عز وجل والصدق معه، والحذر من الدنيا والزهد فيها، والصبر على شدائدها، والتزود بالأعمال الصالحة، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وتحمل الأذى والمشقة في سبيل ذلك (28).

مع العلم بأن الجهاد من حيث هو قمة العمل في الإسلام وذروة سنامه، ووسيلة هذا الدين لتحقيق مهمته في الأرض وأهدافه العليا التي أراد الله عز وجل تحقيقها في عالم الإنس، يحتاج إلى عقيدة إيمانية تعد بمثابة الوقود الذي يمد النفوس بالصبر والصمود في معركتها مع الباطل والطغيان في واقع الحياة.

وقد كان الجيل الأول يدرك هذه الحقيقة إدراك من تعلمها وتربى عليها، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم- يدعو إليها ويغرسها في النفوس تمهيدا للمرحلة التالية وهي مرحلة إقامة الدولة الإسلامية.

وخلاصة القول : أن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون؛ فالخالق تعالى واحد، والكون بسنته ونواميسه واحد، والإنسان في جوهره وغايته ووجوده واحد.

والكون بكامله يتجه الى الله عز وجل اتجاها واحدا بالعبادة والطاعة: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (آل عمران:83)، وكذلك ينبغي للإنسان أن يتجه إلى الغاية نفسها والهدف ذاته، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياع في مسيرة حياته.

ولذلك نص القرآن المكي على قاعدة الوجود الكبرى وغاية الوجود الإنساني: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56)، وهي ترسم الإطار العام للعقيدة والدائرة الشاملة للحياة البشرية.

ولهذا لم يكن مصادفة أن يقضي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر عاما يحدث الناس عن قضية العقيدة، ويعلم أصحابه تجريد التوحيد بأنواعه السالفة الذكر، حيث رسخ في قلوبهم المعرفة الحقة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له، والطاعة المطلقة له، وعدم التقديم بين يديه، والرضا والتسليم بقضائه. وكان مثالا حيا للمؤمن الموحد الذي يقتدى به في هذا الشأن ولأهمية العلم بالعقيدة على هذا النحو، وجب ربط المسلمين وخاصة الدعاة إلى الله بهذا العلم الذي يعد من أولويات البناء في حقل العقيدة؛ لأن المفاهيم الرئيسة في العقيدة إذا لم تكن صحيحة وأصابها الانحراف، فكل ما يستند إليها سيلحق بها؛ إذ على فهمها يترتب فهم سائر الأحكام، وانطلاقا منها توزن الأقوال والمواقف والأحداث.

فمثلا لا يمكن عرض الانحرافات الجوهرية التي تعيش اليوم بين المسلمين مما له تعلق بجوانب الاعتقاد، مع بيان خطرها وتأثيرها والتحذير منها حتى يكون الداعية ملما بأركان توحيد الألوهية الثلاثة وهي : إفراد الله بالحكم، وإفراد الله بالولاء، وإفراد الله بالنسك.

على أن سورة الأنعام وهي سورة مكية ويكاد موضوع التشريع يستغرقها، تستوعب هذه الأركان الثلاثة في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ (الأنعام:114)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ (الأنعام:14)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:162).

فالجاهل بتوحيد الحكم وإفراد الله به يكون عاجزا عن طرح قضية الحكم بغير ما أنزل الله وحكمه الشرعي، وأهمية رد الأمور كلها إلى شرع الله؛ لأن هذا هو مقتضى الإسلام والتسليم، ، وشرط الإيمان الذي لا يكون إلا به، وبذلك لا يكون مؤهلا لتعليم الأفراد وتربيتهم على الولاء لشريعة

الإسلام، والحذر من تنقصها، أو اعتقاد أفضلية غيرها، أو مساواته لها، أو جواز الحكم بغيرها، بحيث يصبح الإيمان المطلق بشريعة الله قناعة راسخة لدى المخاطبين، حتى لو فرضت عليهم النظم الوضعية الجاهلية.

ومن لا يعرف معنى الولاء والبراء لا يمكنه الحديث عن موالاة الكافرين والمنافقين، وحكمها وتأثيرها على النفوس، والخطر الزاحف بسببها سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو المجتمع، والتركيز على ضرورة استقلال الأمة المسلمة وتميزها، واستعلائها بإيمانها وشريعتها على الأوضاع والعقائد والنظم والمناهج الجاهلية.

ومثل هذا وذاك التركيز على توحيد النسك في البلاد والأماكن التي جهل فيها الناس معنى الألوهية، وصرفوا العبادة للشيوخ والأولياء، وقدسوا الأضرحة أكثر من تقديس المساجد (29).

وعلى العموم، فإن العلم بالعقيدة فريضة على كل مسلم، فضلا عن كل داعية؛ لما لها من أهمية ، واعتبار في معرفة المنطلقات والثوابت وتحديد الأهداف والغايات، والتمييز بين الواقع الشركي والواقع الإيماني، وتأصيل المنهج الشرعي لئلا تنحرف الدعوة عن أهدافها المرسومة.

تلك هي الخطوط الكبرى لهذه العقيدة التي ركز عليها القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما ووقف عندها لا يتجاوزها، وكانت غايته تقريرها في النفوس، بحيث تكون عقيدة إيجابية ثابتة مستقرة، قائمة على العلم والعمل، مبنية على الوعي والنظر والمعايشة.

الهوامش

1- محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، ج 1 ص(542)
2- المرجع السابق، ج1 ص(543، ص 1)
3- المرجع السابق، ج1 ص (545) ، ص 3
4- ابن هشام : سيرة النبي-صلى الله عليه وسلم-، ج 1، ص(367)
5- ابن هشام : سيرة النبي-صلى الله عليه وسلم-، ج ،ص1(367). ، ،103، ص 5)
6- الترمذي : السنن، وقال حديث حسن.
7- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وقال الألباني : إسناده مرسل صحيح، والحديث ثابت بمجموع شواهده السلسلة الصحيحة، ج 4 ،ص 8 .
8- ابن تيمية : العبودية، ص 4.
9- ابن تيمية : العبودية، ص 47.

10- سيد قطب : في ظلال القرآن، ج 4(ص 139)

11- البخاري : الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب حدثنا يحيى بن بكير، ج 1 . ، 380 371، ص 1، ج214)

12- أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، وقال ابن كثير في تاريخه : رواه الحاكم والبيهقي. رقم 12(. 220، ص 7 وقال الحافظ في الفتح : إسناده حسن، ج 144، ص 3ج . 25)

13- سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر، رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ص 25.

14- أحمد : المسند، ج 1،ص62

15- سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء، ص 26 .

16- سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر.

17- سيد قطب : في ظلال القرآن، ج 3(1433- 1434).

18- سفر بن عبد الرحمن : ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر، ص31-32.

19- أي الجهاد الشرعي الذي لا يستهدف الأبرياء العزل، وإنما يواجه الطغمة الحاكمة بعد الإعداد على المدى الطويل وامتلاك القدرة على المواجهة.

20- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج3، ص1434.

21- محمد قطب : واقعنا المعاصر

22- غلام حزو : إذا قوي واشتد أبو البقاء العكبري : المشوق المعلم، ج1،ص190.

23- أخرجه ابن ماجه في السنن، رقم61، وقال المحقق : في الزوائد : إسناده صحيح، ج1، ص23.

24- انظر على سبيل المثال : الحلية لأبي نعيم، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والإصابة لابن حجر العسقلاني.

25- ابن القيم مفتاح دار السعادة، ج2،ص95.

26- ابن حجر: الفتح، ج11 ص229.

27- عبد العزيز الجليل : إن ربك حكيم عليم، ص11.

28- عبد العزيز الجليل : قل هو نبأ عظيم، ص 99-113.

29- التجديد في الإسلام، مجلة البيان، عدد 2،ص18-19.